الفصل الثامن

الفتـح الأكبـر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [سورة النصر - الآيات ١ : ٣].

(١)

السنة: الثامنة من الهجرة.

الشهر: شعبان.

بعد مرور أقل من عامين على معاهدة الحديبية، عدا بنو بكر وهم فى عقد قريش، على قبيلة خزاعة وهم فى عقد رسـول الله ﷺ، وسـاعدتهم قريش بالسـلاح والرجال، فقتلوا منهم الضعاف من الشيوخ والنساء والأطفال، وفر من بقى منهم حتى احتموا ببيت الله الحرام.

وسار «عمر الخزاعى» فى أربعين رجل إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ودخل عليه المسجد يستصرخه، وقص عليه ما كان من الأمر، فقال له رسول الله ﷺ:

- نصرت يا عمرو بن سالم.

ثم قام الحبيب غاضبا، وهو يقول:

- لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى.

وبعـث رسـول الله ﷺ إلى القبائـل من يقول: من كان يؤمـن بالله واليوم الآخـر فليحضر رمضان بالمدينة؛ فتجهز خلق كثير، ومع إشراق هلال شهر رمضان، جاءوا بسلاحهم وعتادهم من كل حدب، وهم بين ظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام، وآخر يظن أنه إنما يريد هوزان..

ودعا رسول الله ﷺ ربه، قائلا:

- اللهم خذ على أبصارهم، فلا يرونى إلا بغتة، ولا يسمعوا بى إلا فجأة.

ثـم خـرج فأعلم الناس بوجهته، وأمر نفرا من أصحابه أن يؤمنوا مخارج المدينة، حتى لا يبلغ أحد قريشا بتجهيزهم، ونبئ النبى بأن حاطب بن بلتعة قد بعث امرأة إلى مكة بكتاب يحذر فيه قريشا من غزو رسـول الله ﷺ، فأرسـل إلى على بن أبى طالب و «الزبير بن العوام»، وحـدد لهما مكان المرأة، وأمرهما أن يلحقا بها، وهكذا فشـلت المحاولة الوحيدة لإفشـاء سـر رسول الله ﷺ، ثم دعا حاطبا، وكان ممن شهدوا بدرا، وسأله عما حمله على فعل ذلك، فاعتذر حاطب، قائلا:

– يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى المدينة أهل ولا أصل، ولى بين أظهرهم فى مكة ولد وعشيرة، فأردت أن أصانعهم عليه.

فقال عمر بن الخطاب:

– يا رسول الله ﷺ، دعنى أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق.

فقال له الحبيب ﷺ:

– وما يدريك يا عمر، لعل الله تعالى قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم.

٢

اليوم: الأربعاء، العاشر من الشهر.

الشهر: رمضان.

السنة: الثامنة من الهجرة.

صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين، ثم نادى مناديه:

– من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر.

وخرج رسول الله ﷺ صائما، ومعه المهاجرون والأنصار، وجماعات من العرب، فى عشرة آلاف مقاتل، يركبون الخيل والإبل، وفعل الناس مثلما فعل الحبيب فأمسكوا على صيامهم، وفى اليوم الثانى من الخروج للجهاد، أجهدهم السير فى هجير الصحراء، وبلغ الحبيب ﷺ أن الناس قد شق عليهم الصيام، وكان وقت صلاة العصر قد حل، وهو على راحلته، فطلب إناء به ماء، ورفعه لأعلى حتى يراه الناس جميعا وشرب، ثم ناوله لمن يجاوره فشرب، وشرب من يليه، وهكذا أفطر المسلمون.

فلما وصل جيش المسلمين بمر الظهران، وحل الظلام، أمر رسول الله ﷺ أن يوقد كل رجل نارا، فأوقدت عشرة آلاف نار، جعلت الصحراء وكأنها فى نور الظهيرة.

وكانت قريش فى قلق شديد من أن يغزوها رسول الله ﷺ، بعد أن عدوا على أهل عهد رسول الله، فخرج أبو سفيان بن حرب، ومعه اثنان من أصحابه، يستطلعون مشارف مكة، والتفت نبى الله ﷺ إلى من حوله، وأخبرهم بمكان أبى سفيان، وأمر بإحضاره هو ومن معه، فخرجت إليه جماعة من المسلمين، وعادت به وبصحبه، فلما اقترب ورأى النيران، فزع فزعا شديدا، وتساءل قائلا:

– من القوم؟!.

قالوا:

– هذا رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال أبو سفيان فى عجب:

– هل سمعتم بمثل هذا الجيش، نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم.

ثم ساروا بهم إلى العباس عم رسول الله ﷺ، فأجار أبا سفيان وصاحبين، ثم صحبهم وذهب إلى المسجد، ودخل بهم على الحبيب، فدعاهم رسول الله ﷺ للإسلام فأسلم صاحباه، وشهد أبو سفيان بأنه لا إله إلا الله، لكنه تردد فى أن يشهد بأن محمدا رسول الله، وقال:

– أما هذه ففى النفس منها شىء، فأرجئها.

فطلب رسول الله ﷺ من عمه العباس أن يبيته، ويعود به فى الصباح، فلما أذن لصلاة الصبح، ردد جند الله مع المؤذن، ففزع أبو سفيان، وقال:

– ما يصنع هؤلاء، أأمروا بشىء؟!.

قال العباس رضى الله عنه:

– كلا، بل هم يستعدون للصلاة.

قال:

– وكم يصلون؟.

قال:

– خمس صلوات فى اليوم والليلة.

وأمره العباس بالوضوء فتوضأ، ودخل معه المسجد، فلما دخل رسول الله ﷺ الصلاة كبر، فكبر الناس، وركع فركعوا، ثم رفع فرفعوا، وسجد فسجدوا، فلما انتهوا، قال أبو سفيان فى إعجاب وعجب:

– ما رأيت كاليوم طاعة، قوم جمعهم من هنا وهنا، جعلهم ولا أهل فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون أطوع منهم؛ يا أبا الفضل، أصبح والله ملك ابن أخيك عظيما.

فقال له العباس رضى الله عنه:

– إنه ليس بملك، ولكنها النبوة.

قال:

– أو ذاك.

ثم دخل به العباس رضى الله عنه، على رسول الله ﷺ، فقال له:

– يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟.

قال أبو سفيان:

– بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، إنه لو كان مع الله إله لنصرنى، ولقد استنصرت إلهى، واستنصرت إلهك، وفى كل مرة، أرى أنك قد نصرت على.

قال رسول الله ﷺ:

– ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله.

قال له العباس يستحثه هامسا:

– ويحك اشهد قبل أن تضرب عنقك.

فشهد أبو سفيان شهادة الحق، ثم قال:

– يا رسول الله، جئت بأوباش الناس، من يعرف ومن لا يعرف، إلى أهلك وعشيرتك.

قال رسول الله ﷺ:

– أنتم أظلم وأفجر، لقد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله تعالى وأمنه.

قال أبو سفيان آسفا:

– صدقت يا رسول الله.

قال العباس رضى الله عنه:

– يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب أن يحمد فى قومه، فاجعل له شيئا.

قال رسول الله ﷺ:

– من دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

قال أبو سفيان:

– وما تسع دارى.

قال رسول الله ﷺ:

– ومن دخل المسجد فهو آمن.

قال أبو سفيان:

– وما يسع المسجد.

قال رسول الله ﷺ:

– ومن أغلق بابه عليه فهو آمن.

قال أبو سفيان فى ارتياح:

– هذه واسعة.

ولما أراد أبو سفيان العودة إلى مكة، حبسه العباس، فقال:

– أغدرا يا بنى هاشم؟.

قال العباس رضى الله عنه:

– أنا لست بغدر، ولكن أريدك أن تنظر إلى جند الله، وما أعد الله للمشركين.

وفى الصباح، مرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها، وقد أظهرت ما تحمل من سلاح، فأخذ أبو سفيان يسأل العباس كلما مر به قوم، والعباس يجيبه، فلما مر سعد بن عبادة براية رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء، ورأى أبا سفيان، قال:

– اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا.

وحين اقترب رسول الله ﷺ من موقف أبى سفيان، قال:

– يا رسول الله، أمرت بقتل قومك، ألم تعلم بما قال سعد بن عبادة؟!.

قال رسول الله ﷺ:

– وما قال؟.

قال أبو سفيان ما قاله سعد، ثم أردف:

– وإنى أنشدك الله فى قومك، فأنت أبر الناس، وأوصل الناس، وأرحم الناس.

قال الحبيب ﷺ:

– كذب سعد يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم يوم تكسى الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا.

وأخذ اللواء من سعد ودفعه إلى ابنه، بينما أسرع أبو سفيان يسبق الجميع حتى دخل مكة، واتجه إلى دار الندوة حيث تجمعت رجالات قريش، وصرخ بأعلى صوته:

– يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. أسلموا تسلموا، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه وصاحت فى الناس، قائلة:

– اقتلوا السمين الذى لا خير فيه، قبح من طليعة قوم.

فقال أبو سفيان:

– ويلكم، لا تغركم هذه من أنفسكم، فإن محمدا قد جاءكم بما لا قبل لكم به.

فانفض الناس من حوله، مسرعين كل إلى مهرب، ولكن إبليس نفث فى بعض الفتية من قريش ليهلكهم، فوسوس لهم:

– لا تدعوا محمدا يأخذ قريتكم غصبا، أو ليست هى بلدكم، ألستم السادة وورثة السادة، أتتركونها ليتيم، خرج من بينكم خوفا، وهو لا يملك شق تمرة، واليوم يأتى ليحكمكم ويضيعكم بين العرب، فلا تقوم لعزتكم بعدها قومة؟!!.

وحاول سماع إبليس أن يقاتلوا جند الله، ولكن خالد بن الوليد سرعان ما كر عليهم، وهزمهم شر هزيمة، فقتل منهم من قتل، وفر الباقون إلى دورهم فغلقوا عليهم الأبواب، وهم فى هلع مما ينتظرهم من القتل، ولم يسمع عن مقاومة بعدها!!.

٣

حين أشرق رسول الله ﷺ على أبواب مكة، راكبا راحلته، تلقته الجن ترميه بالشرر، فقال له جبريل عليه السلام أن يتعوذ بهذه الكلمات الحافظات بأمر الله تعالى:

– «أعوذ بكلمات الله التامات، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما بث فى الأرض، وما يخرج منها، ومن شر الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير، يا رحمن».

ودخل رسول الله ﷺ مكة، وقد حنى هامته شكرا لله تعالى، وقال:

– هذا ما وعدنى ربى.

ثم قرأ من سورة الفتح بصوت مسموع ثلاثا:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [سورة الفتح – الآيات ١: ٣].

وسأله أسامة بن زيد:

– يا رسول الله، ألن تنزل فى دارك؟.

قال ﷺ:

– وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار.

ورفض رسول الله ﷺ أن ينزل بدور قريش، ونزل هو وزوجتاه: سلمة وأم ميمونة، فى قبة ضربت له بالجحون.

وأز إبليس أزة حزن عظيمة، سمعها كل أبنائه، فاجتمعوا إليه، فقال:

– أيئسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا، ولكن أفشوا فيها النواح والشعر.

استراح رسول الله ﷺ قليلا، ثم اغتسل وركب ناقته، واتجه إلى الكعبة، يحيط به أصحابه ويفسحون له الطريق من الناس الذين اجتمعوا من كل صوب، وهم ينزاحون سريعا، خوفا من إغضاب المسلمين، وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعا، وكان يستلم الركن بعصا قصيرة كانت فى يده، وكان يشير بها إلى الأصنام التى أحاطت بالبيت، كلما مر بصنم منها فى طوافه، فتسقط الأصنام على أقفيتها، وهو يقول:

– جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

وأكمل المسلمون تحطيم ما بقى من الأصنام.

فلما انتهى رسول الله ﷺ من طوافه، أرسل بلالا إلى عثمان بن طلحة يطلب منه مفتاح الكعبة، وكان عثمان قد أسلم قبل الفتح، فقال له:

– نعم، ولكن هو عند أمى سلافة.

فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال عثمان، بينما أرسل عثمان إلى أمه برسول يطلب منها المفتاح، فقالت، وقد علمت بإسلامه:

– لا، واللات والعزى، لا أدفعه إليك أبدا.

وقال عثمان لرسول الله ﷺ :

– يا رسول الله، أرسلنى أخلصه لك منها.

فأرسله ﷺ، فقال عثمان لأمه:

– يا أمه، ادفعى إلى المفتاح، فإن رسول الله ﷺ، قد أرسل إلى وطلب منى أن آتيه به.

فقالت:

– لا، واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدا.

فقال عثمان:

– لا، لات، ولا عـزى، إنـه قـد جاء أمر غير ما كنا عليه، وإنك إن لم تفعلى، قتلت أنا وأخى، فأنت قتلتنا، فو الله لتدفعنه أو ليأتى غيرى فيأخذه منك.

فأعطته المفتاح، وذهب به إلى رسول الله ﷺ، فتناوله منه، وفتح به باب الكعبة، ودخلها، وأخذ يكبر، ويحمد الله، ثم صلى بها ركعتين، وقام يتأمل جدرانها، فوجد تمثالا لحمامة فحطمه، كما رأى صورا للملائكة، ولإبراهيم عليه السلام وبيده الأزلام يستقسم بها، فقال ﷺ:

– قاتلهم الله، جعلوا شـيخنا يستقسـم بالأزلام، ما شأن إبراهيم الأزلام، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، وما كان من المشركين.

ثم طلب من أصحابه محو تلك الصور.

وحين أطل رسول الله ﷺ من باب الكعبة، تعلقت به عيون القرشيين فى خوف، يترقبون ما سينزله بهم من عقاب، جزاء ما قدمت أيديهم من إساءات لرسول الله وصحبه، أما أولئك الذين قسوا واشتدوا علـى النبـى ﷺ أيام أن كان يقيم بينهم، فحاربوه وآذوه بالفعـل والقول الظالم تطاولا على دين الله، وعلى نبى الله ﷺ بالكذب والبهتان والسـوء، فقد هربوا لائذين بذرى الجبال، أو فـروا خارجين من مكة، وقد قصد بعضهم القبائل التى ما تزال على غير الإسـلام يحتمون بها، بينما رأى البعض الآخر ممن يخافون على أنفسهم العذاب، أن يطلب البحر خلاصا من حياته، خوفا من أن ينزل به المسلمون ما كان ينزله بهم من تعذيب.

وتدافع الناس من حول رسول الله ﷺ، فراح خالد بن الوليد يدفعهم عنه حتى نزل من باب الكعبة، ووقف رسول الله ﷺ صامتا، متأملا فضل الله تعالى عليه، وفى صدق وعد الله تعالى له، ولقد مرت هذه اللحظات على أهل مكة، وكأنها السنوات الطوال، فلما انتهى رسول الله ﷺ، قال:

– لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحـده.

ثم التفت إلى أهل مكة، وقال:

– يا معشر قريش، ماذا تقولون، ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟.

قال القرشيون فى نفس واحد:

– نقول خيرا، ونظن خيرا: نبى كريم، وأخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

فقال الحبيب ﷺ:

– فإنى أقول كما قال أخى يوسف لاخوته: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة يوسف– الآية ٩٢].

وما إن انتهى الحبيب محمد ﷺ من كلامه، إذا بمكة ترتج بالتكبير، وإذا بالقرشيين يدخلون فى دين الله أفواجا، وانقلب الحال، فانكب الكارهون والمحاربون لدين الله تعالى، على رسول الله ﷺ وهو على الصفا يعلنون إسلامهم، فجعل يقبل عليهم، فيضعون أيديهم فى يده، ويأخذ عليهم عهدا بالسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه جالس أمامه، وحين انتهى، تحدث الحبيب ﷺ، فقال:

– ألا كل ربا فى الجاهلية أو دم مأثرة أو مال يدعى، فهو تحت قدمى هاتين، ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد دية مغلظة مائة ناقة، منها أربعون فى بطونها أولادها، ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم لآدم وآدم من تراب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجرات – الآية ١٣].

يا أيها الناس، الناس رجلان: فبر تقى كريم، وكافر شقى هين على الله تعالى، ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ووضع هذين الأخشبين، فهى حرام بحرام الله. لم تحل لأحد كائن قبلى، ولن تحل لأحد كائن بعدى، لم تحل لى إلا بساعة من نهار يقصرها بيده هكذا، ولا ينفر صيدها، ولا يعضد عضدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها، إلا الأزخر فإنه حلال، ولا وصية لوارث، وإن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، وهم يرد عليهم أقصاهم، ويعقل عليهم أدناهم، ومشدهم على مضعفهم، ومثريهم على قاعدهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهد، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا جلب ولا جنب، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، وأنهاكم عن صيام يومين: يوم الأضحى، ويوم الفطر، وعن لبستين: ألا يحتبى أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء، وألا يشتمل الصماء.

فقام رجل فقال:

– يا رسول الله ﷺ، إنى قد عاهرت فى الجاهلية.

فقال رسول الله ﷺ:

– من عاهر بامرأة لا يملكها، أو أمة قوم آخرين لا يملكها، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز

له، ولا يرث، ولا يورث، ولا أخالكم إلا قد عرفتموها.

يا معشر المسلمين: كفوا السلاح، وأستغفر الله تعالى لى ولكم.

(٤)

وأقبلت النساء يعلن دخولهن فى دين الله تعالى، ونبذهن لعبادة ما دون الله تعالى من صنم وطاغوت، ولم يصافحن رسول الله ﷺ، فلم يكن يمس جلده جلد امرأة لم يحلها الله تعالى له، وكانت بين النساء: هند بنت عتبة، امرأة أبى سفيان، وقد تنقبت متخفية عن رسول الله ﷺ خوفا مما فعلته بعمه حمزة، فقال لهن:

- بايعننى على ألا تشركن بالله شيئا، ولا تسرقن..

فقالت هند بصوت مسموع:

- والله إنى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم حراما.

فقال لها أبو سفيان:

- أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل، عفا الله عنك.

قال رسول الله ﷺ:

- ولا تزنين.

قالت هند:

- يا رسول الله، أو تزنى الحرة ؟!!!.

قال رسول الله ﷺ:

- ولا تقتلن أولادكن.

فقالت هند:

- قد ربيناهم صغارا، وقتلتهم كبارا، فأنت وهم أعلم.

فتبسم رسول الله ﷺ، وضحك عمر رضى الله عنه، واستطرد ﷺ، فقال:

- ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن.

فقالت هند:

- والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل.

قال رسول الله ﷺ:

- ولا تعصين.

قالت هند:

- فى معروف.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه:

– يا يعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم.

قالت هند بنت عتبة:

– الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتمسنى رحمتك يا محمد، إنى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة به..

ثم كشفت عن وجهها، واستطردت:

– يا رسول الله، أنا هند بنت عتبة.

فقال النبى ﷺ:

– مرحبا بك.

قالت هند:

– يا رسول الله، ما كان من أهل الأرض أريد أن يذلوا إلا ناسك، ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض ناس أحب إلى من أن يعزوا من أهلك.

وحين انتهت بيعة النساء، استجارت برسول الله ﷺ نساء القارين من رجال قريش، وطلبن منه العفو عن أزواجهن، فعفا ﷺ عنهم، فعادوا ودخلوا فى دين الله راغبين غير مجبرين.

ولما سمع النواح على الذين قتلوا من قريش، جاء سفيان بن حرب، وقال لرسول الله ﷺ:

– فداك أبى وأمى، البقية فى قومك.

قال رسول الله ﷺ:

– لا يقتل قريشى صبرا بعد اليوم.

ونادى منادى رسول الله ﷺ:

– من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره.

وكسرت قريش أصنامها.

٥

لما رأى الحبيب ﷺ، حال الفاقة التى أصبح عليها فقراء المسلمين، ممن حضروا الفتح، لأنهم لم يغنموا من مكة شيئا، أرسل إلى صفوان بن أمية ليقرضه خمسين ألف درهم، وإلى عبد الله بن أبى ربيعة ليقرضه أربعين ألف درهم، وإلى حويطب بن عبد العزى ليقرضه أربعين ألف درهم؛ فأقرضوه، فأخذ يوزعها بين أصحابه من أهل الضعف.

ولقد سرقت امرأة فى الفتح، فقال أهلها:

– من يكلم فيها رسول الله متشفعا؟.

واتفقوا على أن يكلمه أسامة بن زيد، فلما تكلم إلى رسول الله ﷺ، تلون وجهه، وقال:

– يا أسامة، أتشفع فى حد من حدود الله؟!.

قال أسامة:

– يا رسول الله، استغفر لى.

فلما كان وقت العشاء، صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين، ثم خطبهم قائلا بعد أن اثنى على الله تعالى بما هو أهله:

– أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفسى بيده،لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وقال رسول الله ﷺ:

– لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا.

وتخوف الأنصار من أن يحن رسول الله ﷺ إلى أهله فيبقى بمكة، ولا يعود معهم إلى المدينة، فسألوه، فقال لهم ﷺ:

– معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم.

٦

لما فتح الله تعالى لرسوله ﷺ مكة، تنافرت قبيلتا هوزان وثقيف، وتنادوا للحرب، وقال أصحاب الرأى فيهما:

– قد فرغ لنا، فلا ناهية له دوننا، والرأى أن نغزوه، وإن محمدا لم يلق قوما أهل حرب، وإنه علينا أن نرده عن باقى العرب، ونحرر القرشيين من كيده.

وكان دريد بن الصمة هو صاحب الرأى فيهم، وقد بلغ من العمر مائة وستين عاما، وفقد بصره، لكنه عرف بينهم بالشجاعة والإقدام والدهاء؛ فلما أجمعوا رأيهم على حرب محمد ﷺ، ولوه رئاستهم، فقال لهم:

– وماذا وقد عمى بصرى وما أستمسك على ظهر فرس، ولكن أحضر معكم على أن أشير عليكم على ألا أخالف، فإن كنتم تظنون أن أخالف أقمت ولم أخرج.

قالوا له:

– لا نخالفك فى أمر تراه.

فاتفقوا على أن يجعلوا كمينا لجيش المسلمين فى الجبل، حتى إذا ما كر المسلمون عليهم، نزل الكمين من الأجناب وفاجأهم، فيتشتت جيش المسلمين.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر هوزان، وما أجمعوا عليه، فجمع أصحابه، من أهل المدينة ومكة، فقالوا وقد أعجبتهم كثرتهم:

– الآن نقاتل حين اجتمعنا، لن نغلب من قلة.

فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ولم يعقب.

وأرسلت هوزان جواسيسها، فتفرقوا بين المسلمين، ولقد رأى أحدهم رسول الله ﷺ نائما تحت شجرة وقد علق قوسه وسيفه فى غصن من أغصانها، فاقترب منه يريد أن يأخذه غيلة، ولما انتبه نبى الله ﷺ، والرجل قائم بالسيف على عنقه يسأله فى غلظة وكبر، قائلا:

– يا محمد، من يمنعك اليوم منى؟.

قال نبى الله ﷺ:

– الله تعالى.

فسقط السيف من يد الكافر، فحمل عليه رسول الله ﷺ، فشل حركته، ثم نادى أحد صحابته، وقص عليه ما حدث، فقال الصحابى:

– يا رسول الله، دعنى أضرب عنق عدو الله، فإنه من عيون المشركين.

فمنعه، وأطلق الرجل، وقال:

– إن الله تعالى، مانعى وحافظى، حتى يظهر دينه على الدين كله.

وعادت إلى هوزان عيونهم، وقد أصابهم الرعب، وقالوا:

– رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، والله ما أصابنا إلا ما ترونا عليه، والله ما نقاتل أهل الأرض، إن نقاتل إلا أهل السماء، وإن أطعتمونا رجعنا بقومنا.

ولكن إبليس وسوس لمن استمعوا إليهم بأنهم واهمون، وقال لهم انشروا جندكم على جانبى الوادى ومن تحته، واتركوا الإبل والغنم والنساء والصبيان فى الوادى، ليتوهم المسلمون أنهم الجند؛ وأقبل جيش المسلمين مع خيوط الفجر منحدرا إلى وادى حنين، فما إن وطئوا أرض الوادى، حتى استقبلتهم جنود هوزان بالنبل من على الأجناب، وكان فى المقدمة ألفان من فتية قريش لا خبرة لهم بالحرب، ففروا سراعا، وانكشف جند المسلمين متراجعين، وثبت رسول الله ﷺ فلم يتقهقر خطوة واحدة،وقال:

– اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان.

ثم تقدم مخترقا صفوف المشركين، ونادى منادى رسول الله ﷺ على الأنصار، قائلا:

– يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة.

ونادى على المهاجرين، قائلا:

– يا أيها الذين بايعوا تحت الشجرة.

فإذا المهاجرين والأنصار يكرون ملبين، ويحيطون برسول الله ﷺ، إحاطة المشتاق الذى يبغى اللقاء والفداء، ورمى الحبيب ﷺ بحفنة من الحصى فى وجوه أعداء الله، وقال:

– شاهت الوجوه، حم لا ينصرون.

فإذا بالدائرة تدور على الكفار فينقلبون خاسرين، ما بين قتيل وأسير، وفرت القلة الناجية إلى الطائف؛ ومكن الله تعالى رسوله ﷺ منهم، وجعل له أموالهم، فأعطاها للمؤلفة قلوبهم من أشراف العرب، فمنهم من أعطى مائة بعير وأكثر، ومنهم من أعطاه خمسين.

ولما لاحظ الأنصار أن رسول الله ﷺ لم يعطهم شيئا من الغنم، قال قائلهم:

– يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ، إن هذا لهو العجب، يعطى قريشا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؛ إذا كانت شديدة، فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة لغيرنا، وددنا أنا نعلم ممن كان هذا؟.. فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من أمر رسول الله ﷺ استعتبناه.

فبعث رسول الله ﷺ إلى الأنصار فجمعهم، وقال:

– ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟.

قالوا:

– وما نقول يا رسول الله ؟.. وماذا نجيبك، المن لله تعالى ولرسوله ﷺ.

قال نبى الله ﷺ:

– والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتكم: جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك، ومكذبا فصدقناك.

قالوا:

– المن لله تعالى ولرسوله ﷺ.

قال الحبيب محمد ﷺ:

– وما حديث بلغنى عنكم؟!.

قالوا:

– أما رؤساؤنا، فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ: يعطى قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم..

فقال الحبيب ﷺ:

– إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم؛ أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله تعالى لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟.. فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، أنتم الشعار، والناس دثار، الأنصار كرشى وعيبتى، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الأنصار: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار.

فبكى الأنصار حتى ابتلت لحاهم بالدمع، وقالوا:

– رضينا بالله تعالى ورسوله ﷺ حظا وقسما.

وأراد رسول الله ﷺ أن يكتب لهم خراج البحرين من بعده، فقال الأنصار:

– لا حاجة لنا بالدنيا بعدك.

فقال الحبيب ﷺ :

– إنكم ستجدون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض.

وأرسل نبى الله ﷺ بمن رد القرض إلى الثلاثة الذين أقرضوه حين فتح مكة، قائلا لكل فرد منهم:

– بارك الله لك فى مالك وولدك.

ثم قال ﷺ لمن حوله معلما:

– إنما جزاء السلف، الحمد والأداء.

٧

زحف جند الله إلى الطائف، يقودهم رسول الله ﷺ، فأشار كبيرهم عبد يا ليل على أهلها أن يلجوا إلى الحصون، فتزودوا بقوت كثير يكفيهم لعام، وحين حاصرهم المسلمون أعلنوا أنهم لن يفتحوا حصونهم، ولن يدخلوا فى دين الله، وتراشقوا بالنبل والحجارة، ثم انصرف المسلمون عائدين، بعد أن سأل رسول الله ربه أن يكفيه حربهم، وأن يقدموا عليه مسلمين، وهذا ما كان، وبدأ بلجوء من فر من سادة هوزان وثقيف إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، فردت إليهم نساؤهم وعيالهم.

وأثناء العودة إلى المدينة لحق عروة بن مسعود الثقفى برسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بالعودة إلى قومه بالطائف ليدعوهم للدخول فى دين الله، ولكن النبى ﷺ رفض مرارا، فلما ألح عروة قال له النبى ﷺ :

– إنهم قاتلوك.

قال عروة:

– كيف يا رسول الله، لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم؟!..

فقال له رسول الله ﷺ :

– إن شئت فاخرج.

وعاد عروة إلى الطائف، وهو مستبشر بدخول قومه فى دين الله.

وعسكر رسول الله ﷺ بمنطقة الجعرانة، ثلاث عشرة ليلة، نوى خلالها بعمرة، ونزل إلى مكة فطاف على رجليه وسعى على راحلته، ثم رجع إلى عسكره فى ليلته، وولى عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن واحد وعشرين سنة، ومعه معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعرى، يعلمان الناس القرآن والشريعة.

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، فلما أهل عليها قال:

– هذه طابه.

وماتت زينب ابنة الحبيب محمد رضى الله عنها، فلقد ظلت عليلة الصحة منذ عادت من مكة مجهضة نتيجة ما فعله بها خسيسان من مشركى قريش، فأوقعاها من فوق راحلتها، وحزن الحبيب

ﷺ لفراقها حزنا شديدا، وكذا لم يبق له من الأبناء غير فاطمة الزهراء رضى الله عنها، ولكن الله تعالى أراد أن يسرى عنه، ففى شهر ذى الحجة من سنة ثمان للهجرة، رزقه الله تعالى بابنه إبراهيم من مارية القبطية، فسر بمولده سرورا عظيما.

ولكن ما هى إلا شهور، ومرض إبراهيم مرضا خيف على حياته منه، فقامت أمه مارية، وأختها سيرين على تطبيبه، وأرسل إلى الحبيب ليحضر لحظاته الأخيرة، فذهب متحاملا على عبد الرحمن بن عوف، ونفسه تقطر ألما، وحين وجد فلذة كبده يرسل زفراته غير منتظمة، وضعه فى حجره، وفاض حنانه ودمعه، وقال فى أسى:

- إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا.

فلما، حتى أتاه ملك الموت، ورفع روحه الطاهرة إلى بارئها، وسكتت أنفاسه، وسكن جسده، قال ﷺ:

- يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك أشد من هذا. وعلى قبره، قال الصابر الرحيم ﷺ:

- تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون

فلما أشفق عليه أصحابه لشدة حزنه، ذكروه بنهيه عن إظهار الحزن، قال الحبيب ﷺ:

- ما عن الحزن نهيت، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة، ومن لم يبد الرحمة، لم يبد غيره عليه الرحمة.

٨

السنة: التاسعة من الهجرة..

سميت هذه السنة بسنة الوفود لكثرة ما وفد على المدينة من وفود العرب، قادمة من كل حدب، قاصدة عهد رسول الله ﷺ، والدخول فى دين الله، وبعث رسول الله ﷺ ليجمع الزكاة من الذين آمنوا من العرب، فدفعوها راضين، إلا ما كان من بنى تميم، وكانوا على غير الإسلام، فلم يدفعوا الجزية، فلقد استكثروا الصدقات التى جمعت، فشهروا سيوفهم ومنعوها، فبلغ رسول الله ﷺ ما حدث، فبعث عيين بن حصن الفزارى فى خمسين فارسا لحرب بنى تميم، فوجد بنى خزاعة قد طردوهم من ديارهم، فسار فى أثرهم، فلما رأوه هربوا بعد أن أخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا، فجاء بهم أسرى إلى المدينة.

وقدم وفد من كبار بنى تميم، ودخلوا المسجد قبل الظهر، وكان رسول الله ﷺ بمنزل عائشة، فنادوه من وراء الحجرات طالبين خروجه إليهم، فخرج إليهم وجلس فيهم وقد آذاه صياحهم.

وتحدث خطيبهم فقال:

– الحمد لله الذى له الفضل علينا، والذى جعلنا ملوكا، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف، وجعلنا أهل المشرق وأكثرهم مالا، وأكثرهم عددا، فمن مثلنا فى الناس، ألسنا برءوس الناس؟.. وذوى فضلهم؛ فمن يفاخر فليعدد مثلما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحى من الإكثار فيما أعطانا الله، أقول قولى هذا، لأن نؤتى بقول هو أفضل من قولنا.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس أن يقوم ليرد عليهم، فقام، وقال:

– الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كل شىء علمه، فلم يكن شىء إلا من فضله، ثم كان ما قدر أن جعلنا ملوكا، ولكن اصطفى لنا من خلقه رسولا، أكرمهم نسبا، وأحسنهم زيا، وأصدقهم حديثا، نزل عليه كتابه، وأتمنه على خلقه، وكان خيرته من عباده، فدعا إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون من قومه، وذوى رحمه، أصبح الناس وجها، وأفضل الناس فعالا، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله، فنحن أنصار الله ورسوله، نقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه فى ذلك، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، وللمؤمنين والمؤمنات.

واختلى وفد تميم فتشاوروا، ثم خرجوا إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، وأطلق رسول الله ﷺ سباياهم من الرجال والنساء، ورد عليهم صبيانهم.

وفى شهر رجب من هذه السنة مات النجاشى، وأخبر نبى الله ﷺ بموته من السماء، فصلى عليه صلاة الغائب.

فى ذات الشهر، جاءت بعض الوفود بخبر خروج الروم واحتشادهم لحرب المسلمين، وحض رسول الله ﷺ المسلمين على النفقة فى سبيل الله تجهيزًا للقتال، فكان أول من حمل صدقته أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فسأله الحبيب ﷺ:

– هل أبقيت شيئا لأهلك؟.

فأجاب الصديق، قائلا:

– أبقيت لهم الله ورسوله.

ولقد حاول المنافقون، وكانوا يجتمعون فى بيت ليهودى، أن يثبطوا من همم المسلمين، فقالوا لا تنفروا فى الحر، فلما لم يستجيبوا لقولهم، قالوا: إن موسم حصاد ما زرعتم قد حان، أفتتركون زرعكم من أجل حرب ستنقلب عليكم وبالا؟!.

وحين سمع رسول الله ﷺ بمكرهم، أرسل بمن يحرق دار النفاق، فخاف أهل النفاق وكفا الله المؤمنين أذاهم.

وسار رسول الله ﷺ فى ثلاثين ألفا، فيهم عشرة آلاف فرس، واثنا عشر ألف بعير؛ وفى الطريق تخلف أناس من المنافقين واليهود، وعجز جمل أبى ذر الغفارى عن حمله، فتركه وحمل متاعه على ظهره، وسار حتى لحق برسول الله، وقد أصابه الإجهاد والعطش، فقال له رسول الله ﷺ:

– مرحبا بأبى ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

وحين وصل رسول الله ﷺ تبوك، خطب فى المسلمين، فقال بعد أن حمد الله تعالى بما هو أهل له:

– أيها الناس، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما أتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا نذرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما ألقى فى القلب: اليقين، والارتياب من الكفر، والنحاحة من عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنم، والشكر كَنٌّ من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبالة إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المال أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقى من شقى فى بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع والأمر إلى آخرة، وملاك العمل خواتمه، وشر الرؤيا رؤيا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتل المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتأل على الله يكذبه، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يؤجره الله، ومن يصبر يضاعف الله له، ومن يعص الله يعذبه؛ اللهم اغفر لى ولأمتى، اللهم اغفر لى ولأمتى، أستغفر الله لى ولكم.

ولما انتهى رسول الله ﷺ، طاف على ناقته بالناس، وهو يقول: «يا أيها الناس، يد الله فوق يد المعطى، ويد المعطى الوسطى، ويد المعطى السفلى، أيها الناس، استغنوا عن سؤال الناس ولو بحزم حطب، اللهم قد بلغت، اللهم قد بلغت، اللهم قد بلغت».

ومات بتبوك عبد الله بن عبد نهم المزنى، وهو شاب أسلم تاركا كل نعيم كان فيه؛ وفضل أن يأتى إلى رسول الله ﷺ مسلما، على أن يبقى فى نعيم الدنيا، فجاء وهو ملتف فى قطعتى قماش، بعد أن جرده عمه من ثوبه، وقد نزل الحبيب ﷺ قبره، ووسده بيديه الشريفتين، ودعا له قائلا:

– اللهم، إنى أمسيت عنه راضيا، فارض عنه.

ويقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى ذلك:

– يا ليتنى كنت صاحب هذا اللحد.

بعث رسول الله ﷺ بالعيون يتحسسون جموع الروم، فعادوا قائلين: إنهم لم يجدوا أثرا لجمعهم، وتبين أن ما قيل لم يكن صدقا، فتشاور رسول الله مع أصحابه، فسألوه:

– إن كنت أمرت بالسير فسر.

فقال ﷺ :

– لو أمرت به ما استشرتكم فيه.

استقر العزم على العودة، وخلال ذلك أمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يأتيه بأكيدر ملك كنده، فسأله خالد عاجبا: كيف يأتى به وهو بين أهله، وليس مع خالد غير أربعين فارسا، فأخبره نبى الله ﷺ بأنه سيجده يصيد البقر، فليأخذه ولا يقتله، وليأت به وحين وصل ابن الوليد، كان القمر مكتملا، وجاءت البقر تتمسح بحصن أكيدر فخرج إليها على فرسه وبيده رمحه، وظهر خالد ومن معه من مكمنهم، وجاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه وصالحه على الجزية وأعطاه عهد الأمان، بعد أن رفض الدخول فى الإسلام، فلما سمعت أهل آيل وتيماء وما حولها بما حدث، جاءت وفودهم، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وأعطاهم عهد الأمان.

٩

وما إن أهل شهر رمضان حتى أقبل وفد من الطائف يتقدمهم عبد يا عين، ولم يكن بينهم عروة الثقفى، فلقد تحققت فيه نبوءة نبى الله ﷺ، فلقد رماه قومه بالنبل حين سمعوه يؤذن للصلاة، فأصابوا كاحله فظل ينزف حتى مات، وسأله قومه قبل أن يموت، ليحدد لهم ممن يؤخذ ثأره:

– ما ترى فى دمك؟.

قال عروة رضى الله عنه:

– هو كرامة أكرمنى بها الله، وشهادة ساقها الله إلى، فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم.

فدفنوا عروة مع من أستشهد بالطائف، فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ، قال:

– «مثل عروة، مثل صاحب يس: دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه».

وقال الناس حين رأوا وفد ثقيف يدخل المسجد:

– يا رسول الله، أيدخلون المسجد وهم مشركون.

فقال ﷺ :

– إن الأرض لا ينجسها شىء.

وأمر أن تضرب لهم ثلاث خيام بناحية من المسجد، فكانوا يستمعون إلى ما يتلى من القرآن فى الصلوات، وإلى خطب رسول الله ﷺ، وظلوا على هذا الحال أياما، ورسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وهم مترددون، بينما شرح الله قلب عثمان بن أبى العاص، وهو أصغرهم سنا، فكانوا إذا أخلدوا إلى النوم، ذهب إلى رسول الله ﷺ فسأله فى أمور الدين، حتى فقه وأعلن إسلامه، وحين أراد الوفد العودة، سأل عبد يا ليل رسول الله ﷺ، قائلا:

– ألن تصالحنا حتى نرجع إلى قومنا؟.

قال رسول الله ﷺ :

– إن أنتم أقررتم بالإسلام، قاضيتكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم.

فقال عبد يا ليل:

– إن أقررنا، أرأيت أن تبيح لنا الزنا، فإنا قوم عزاب ولا يصبر أحدنا على العزبة، ولابد لنا منه.

قال رسول الله ﷺ :

– هو مما حرم الله.

قال عبد يا ليل:

– أرأيت أن تترك لنا الربا؟.

قال ﷺ :

– الربا حرام.

قال عبد يا ليل:

– فإن أموالنا كلها ربا.

قال ﷺ :

– لكم رءوس أموالكم.

قال عبد يا ليل:

– أرأيت الخمر، فإنها عصير أعنابنا، ولابد لنا منها؟.

قال ﷺ :

– فإن الله حرمها.

قال عبد يا ليل:

– أفرأيت أن تدع لنا معبودنا الطاغية، فلا تهدمه ثلاث سنين؟.

فرفض رسول الله ﷺ، فأخذوا ينقصون المدة سنة فسنة، ورسول الله ﷺ يرفض، حتى وصلوا إلى شهر حتى لا يروعوا قومهم بهدمه منذ اللحظة الأولى من دخولهم فى الإسلام، فرفض رسول الله ﷺ أن يحدد مدة يترك فيها معبودهم، فسألوه ألا تكسر أصنامهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ :

– هذه نعفيكم منها.

وأسلم الوفد، وصاموا ما باقى من أيام رمضان، وشاركوا المسلمين فى صلاتهم، وكتب رسول الله لهم كتاب أمان، وأمر عليهم أسبقهم إلى الإسلام وأصغرهم سنا، وأوصاه قائلا:

– يا عثمان، تجاوز فى الصلاة، وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير، والضعيف وذا الحاجة، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا.

ودخل أهل الطائف فى دين الله أفواجا، وحسن إسلامهم.

(١٠)

وفى شهر ذى القعدة مات رأس الكفر عبد الله بن أبى بن سلول، بعد أن اشتد عليه المرض عشرين يوما، ولقد عاده فى مرضه رسول الله ﷺ، وحين مات وضع فى موضع الجنائز، وتقدم رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فاعترض عمر رضى الله عنه، قائلا:

- يا رسول الله، أتصلى على عدو الله، القائل كذا يوم كذا، والقائل كذا...

وأخذ عمر بن الخطاب يعدد ما قال، فقال له الحبيب ﷺ:

- يا عمر، أخر عنى، فإنى خيرت، فاخترت، قد قيل لى: » استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.«، فلو أعلم أنى زدت على سبعين غفر له لزدت.

وصلى عليه، وحضر دفنه، وعزى ابنه عبد الله رضى الله عنه وانصرف، ونزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [سورة التوبة - الآية ٨٤].

ومنذ نزلت هذه الآية، لم يصل رسول الله ﷺ على أحد مات من المنافقين.

وحين أذن فى الناس بالحج كره رسول الله ﷺ الخروج بالناس، لأنه كان قد عاهد بعض الكافرين على أن يسمح لهم بالحج مع المسلمين فى عامهم هذا، ولقد كان كثير منهم يطوفون بالبيت وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ظانين أنهم بفعلهم هذا إنما يزدادون تقربا للبيت ويزيدونه بذلك تعظيما!!.

اختار رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه، وأمره على الحجيج، وأوصاه النبى ﷺ بمخالفة الكفار، وعلمه المناسك، فخرج فى ثلاثمائة رجل، وهو مفرد بالحج، وقد صحب معه الهدى، وبعد خروجه من المدينة، نزلت سورة التوبة على نبى الله ﷺ، فأرسل عليا رضى الله عنه ليلحق بأبى بكر ويصحبه فى الحج، وليقرأ السورة على الناس بعد تمام الحج.

ولما وصل أبو بكر مكة، خطب فى الناس بعد صلاة الظهر قبل يوم التروية بيوم، وحين زاغت الشمس من يوم التروية طاف بالبيت سبعا، ثم ركب راحلته واتجه إلى منى وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبات فيها، ثم صلى الصبح، ومع مشرق الشمس سار إلى نمرة تَقَيَّل فيها، ومع غروب الشمس سار إلى عرفات، فخطب فى الناس، وصلى الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، ثم ركب راحلته ووقف بالناس على هضاب عرفات ودعا الله بما فتح عليه به الله، ومع الغروب سار إلى جمع، ولما بزغ الفجر صلى الصبح، ورمى بعد ذلك الجمرة بسبع حصيات وهو راكب راحلته، ورجع إلى المنحر، فنحر الهدى ثم حلق ومعه الناس، وهنا قرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه سورة التوبة كما أمره الحبيب ﷺ: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ

فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟
لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۖ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ
عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن
يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟
فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا
نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ
أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

وقال على رضى الله عنه، موضحا للناس:

– لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد خاص فهو له إلى مدته إلا من نقض، إعمالا لما أمر الله.

وبعد صلاة الظهر خطب أبو بكر فى الناس وهو على راحلته، وذهب إلى منى يرمى الجمار ماشيا، فلما رمى يوم الصدر، ركب وعاد إلى مكة فصلى المغرب والعشاء، وخرج من ليلته عائدا بالحجيج إلى المدينة.

فكانت الحجة الأولى للناس فى ظل الإسلام.